الحَمْــدُ في القرآنِ الكريمِ والسنةِ النبويةِ المطهرةِ

الْحَمدُ للهِ الَّذِي نشرَ للْعُلَمَاءِ أعلامًا، وَثَبَّتَ لَهُم على الصِّرَاطِ الْمُسْتَقيمِ أقدامًا، وَجعلَ مقَامَ الْعلمِ به أَعلَى مقَام، وَفَضَّــلَ الْعلمَاءَ بِإِقَامَةِ الْحُجَجِ الدِّينِيَّةِ وَمَعْرِفَةِ الْأَحْكَامِ، وأَوْدعَ العارفينَ لطائفَ سرِّهِ فَهُم أهلُ المحاضرةِ والإلهامِ، ووفَّقَ العاملين لخدمتِهِ فهجرُوا لذيذَ الْمَنَام، أَحْمَدُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على جزيلِ العطاءِ وعظيمِ الجزاءِ ووافرِ الإنعامِ.

وَأَشْــهد أَنْ لَا إِلَه إِلَّا اللهُ وَحدَهُ لَا شَــرِيكَ لَهُ، الْملكُ العلامُ، الهادِي إلى دينِ الإســلامِ والداعِي إلى دارِ السلامِ كاشفُ الكُرَبِ ومُذْهبُ الأسقامِ، بيدِه الشفاءُ وعندَهُ الدواءُ، وَأَشْهدُ أَنَّ سيدنَا وَنَبِينَا مُحَمَّدًا عَبدُاللهِ وَرَسُولُهُ، وَصفيُّهُ مِن خلقِهِ وخليلُهُ إ،مَامُ كلّ إِمَام.

عناصـر الخطبة:

- افتتاحُ كتابِ اللهِ تعالى بالحمدِ دليلٌ على عظمتِه.
- الحمدُ مِن الواجباتِ الشرعيةِ التي لا اختيارَ فيها للعبدِ.
- مِن فضائلِ الحمدِ والثناءِ جلبُ المزيدِ مِن العطاءِ.

العنصـرُ الأولُ: افتتاحُ كتابِ اللهِ تعالَى بالحمدِ دليلٌ على عظمتِه.

كتابُ اللهِ تعالى، هو العطاءُ الذي لا ينفدُ، والنعيمُ الذي لا يزولُ، وفضـلُ اللهِ الذي لا ينقطعُ عن الخلقِ، فهو خيرُ كتابٍ أنزلَ على خيرِ نبيٍّ أُرسلَ لخيرِ أُمةٍ أخرجتْ للناسِ، وهو الضياءُ والنورُ، والفسحةُ والسرورُ، والشفاءُ لِمَا في الصدورِ، وافتتاحُ اللهِ تعالى كتابَهُ بالحمدِ يشعرُ بعظمةِ قدرِهِ، وعلوِّ شأنِهِ، قالَ تعالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. [الفاتحة، 2].

والحمدُ: هو الثناءُ الجميلُ على الجليلِ، بمَا أجزلَ مِن العطاءِ على البشــريةِ جمعاء، وهو ثناءٌ تفردَ بِهِ الخالقُ دونَ الخلقِ. فأثنَى سبحانَهُ بالحمدِ على نفسِه، وافتتحَ كتابَهُ بالحمدِ، ولم يأذنْ

في ذلك لغيرِهِ، فهو أهلُ الثناءِ والمجدِ، ويستقبحُ مِن المخلوقِ الذي لم يُعطَ الكمالَ أنْ يحمدَ نفسَهُ بمَا يُحمدُ بهِ صــاحبُ الجلالِ والكمالِ. ولَمّا علمَ ســبحانَهُ وتعالى عجزَ عبادِهِ عن الحمدِ، حمدَ نفسَهُ بنفسِهِ، قبلَ أنْ يحمدَهُ أحدٌ مِن خلقِهِ، وأثنَى على نفسِهِ بنفسِهِ قبلَ أنْ يثنِي عليهِ أحدٌ، فحَمْدُ اللهِ تعالَى لنفسِه لم يكنْ مِن أجلِ علةٍ، وحَمْدُ العبادِ مليءٌ بالعللِ. [تفسير **القرطبي**].

وللعلماءِ كلامٌ في معنَى الحمدِ والشــكرِ، فمنهُم مَن قالَ: معناهمَا واحدٌ. ومنهم مَن قالَ: أنَّ الشــكرَ أعمُّ مِن الحمدِ؛ لأنَّ الشــكرَ يكونُ باللســانِ وبالجوارحِ وبالقلبِ، والحمدُ إنَّمَا يكونُ باللســانِ خاصــةً. ومنهم مَن قال: الحمدُ أعمُّ مِن الشكرِ، لأنَّ الحمدَ يوضــعُ موضــعَ الشكرِ، ولا يوضعُ الشكرُ موضعَ الحمدِ. قالَ عبدُ اللهِ بنُ عباسٍ رضي اللهُ عنه: «الحمدُ للهِ كلمةُ كلِّ شــاكرٍ». وعبّرَ بها الأنبياءُ والمرسلون عن الاعترافِ بالجميلِ لربِّ العالمين، وهي أولُ كلمةٍ نطقَ بهَا آدمُ عليه الســلامُ، فعند الترمذِي وابنِ حبانٍ وغيرِهمَا، أنَّ رســولَ اللهِ ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ عَطَسَ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، فَحَمِدَ اللَّهَ بِإِذْنِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: يَرْحَمُكَ رَبُّكَ يَا آدَمُ ....».

ونطقَ بالحمدِ إبراهيمُ ـ عليه السلامُ ـ عندمَا بُشّرَ بالغلامِ، قال اللهُ تعالى: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ**﴾. [إبراهيم، 39].

وداودُ وســليمانُ عندمَا علمَا باصــطفاءِ وتفضــيلِ اللهُ لهمَا، قالَ تعالَى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُــلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّــلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾. [النمل، 15].

وأهلُ الجنةِ نطقُوا بها، عندما أســكنَهُم ربُّنَا دارَ النعيمِ، ونجّاهُم بفضــلـه مِن عذابِ الجحيمِ، قالَ تعالَى: ﴿**وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَــكُورٌ**﴾. [فاطر، 34]. فالحمدُ كلمةُ كلِّ شــاكرٍ. وهو ثناءٌ على الممدوحِ بصــفاتِه مِن غيرِ ســبقِ إحسانٍ، والشكرُ ثناءٌ على المشكورِ بمَا أولَى مِن الإحسانِ، قال شقيقُ البلخِي في تفسيرِها: الحمدُ على ثلاثةِ أوجهٍ: أولُهَا: إذا أعطاكَ اللهُ شــيئًا تعرفُ مَن أعطاكَ. والثانِي: أنْ ترضَــى بمَا أعطاكَ. والثالثُ: ما دامتْ قوتُهُ في جسدِكَ ألا تعصِيه. [تفسير **القرطبي**].

العنصرُ الثانِي: الحمدُ مِن الواجباتِ الشرعيةِ التي لا اختيارَ فيها للعبدِ.

مِن كمالِ الفضـــائلِ وجوامعِ النعمِ التي أتمَّهَا اللهُ تعالَى على خلقِه أنَّهُ لم يكلفْهُم بأنْ يُؤدُّوا لهَ مقابلَ هذه النعمِ، إذ لو كلفَهُم بذلك لعجزُوا، ولمنعَهَا عنهم حتى يُؤدُّوا لحُرمُوا، لكن فضلُهُ على الخلقِ أعظمُ مِن أنْ يُنسَى ونعمُهُ أكثرُ مِن أنْ تُعدّ وتحصَى، قال تعالى: ﴿**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾. [النحل، 18].

أي: أنَّ نعمَ اللهِ تعالى مِن الكثرةِ ما تجعلُ البشـرَ يعجزونَ عن عدِّهَا وحصـرِهَا، ولا يطيقُون شكرَهَا، ومع ذلك فهو سبحانَهُ غفورٌ رحيمٌ، يتجاوزُ عن تقصيرِهِم في أداءِ الشكرِ، ولا يقطعُ عنهم النعمَ للتفريطِ، ولا يعجلُ بالعقوبةِ على كفرانِ هذه النعمِ والعطايَا. [تفســـير **الزمخشري**].

ومِن تمامِ النعمِ، وكمالِ الفضـــائلِ، أنَّه جعلَ للشـــكرِ على النعمِ ميزتَان، الأولى: أنَّ العبدَ بالشكرِ والثناءِ يُؤدِّي واجبَهُ تجاهَ النعمِ، ويضمنُ بقاءَهَا. والثاني: أنَّهُ يستجلبُ بالشكرِ والثناءِ المزيدَ مِن المنحِ والعطايَا، قالَ تعالَى: ﴿**لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**﴾. [النحل، 18].

فالنعمُ التي تتدفقُ على العبدِ تستوجبُ الشكرَ، والحمدُ كلمةُ كلِّ شـاكرٍ، ومِن النعمِ التي أبرزَهَا

رسـولُ اللهِ ﷺ، ووجَّهَ أمتَهُ إلى أداءِ شـكرِهَا، هي نعمةُ انقيادِ الجسـمِ لصـاحبِهِ، وانسـيابِ حركتِهِ، وطواعيتِهِ له وهو لا يعلمُ مصـدرَ الإمدادِ والحركةِ، ففي الصـحيحين مِن حديثِ أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ». قَالَ: «تَعْدِلُ بَيْنَ الاِثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَـدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَـدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ تَمْشِـيهَا إِلَى الصَّـلَاةِ صَدَقَةٌ، وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ».

يعنى: كلُّ مفصلٍ في جسمِ الإنسانِ عليه صدقةٌ للهِ مِن فعلِ الطاعةِ والخيرِ كلَّ يومٍ، إذ كلُّ موضعِ شعرةٍ فمَا فوقهَا مِن جسدِ الإنسانِ عليهِ فيهِ نعمةٌ للهِ، يلزمهُ شكرَهَا والاعترافَ بهَا، حيثُ خلقَهُ صحيحًا يتصرفُ في منافعِهِ وإرادتِهِ، ولم يجعلْ في ذلك الموضعِ داءً يمنعهُ

ألمُهُ مِن استعمالِهِ والانتفاعِ بهِ. وسميتْ طاعةُ اللهِ مِن صلاةٍ وغيرِهَا صدقةً؛ لأنَّه كان للهِ أنْ يفترضَ على عبادِه ما شاءَ مِن الأعمالِ دونَ أجرٍ يأجرُهُم عليها، ولا ثوابَ فيها، ولكنَّهُ برحمتِه تفضلَ علينَا بالأجرِ والثوابِ على ما فرضَهُ، فلمَّا كانَ لأفعالِنَا أجرٌ، فكأنَّنَا نحن ابتدأنَا بالعملِ، فاستحققْنَا الأجرَ، فشابَهَ بهِ الصدقةُ، وفيهِ أنَّ العدلَ بينَ الناسِ مِن الأعمالِ المرجوّ قبولَهَا. [شرح **صحيح البخاري لابن بطال**].

ثم دلَّ رسولُ اللهِ ﷺ أمتَهُ على نعمِ اللهِ في أنفسِهِم، وأنَّ سهولةَ الحركةِ إنّمَا هي مِن عطاءِ اللهِ، الذي يستوجبُ الشكرَ، فقد سخّرَ سبحانَهُ وتعالَى للإنسانِ فيها جيشًا مِن المفاصلِ، جُنّدُوا ليستمتعَ بهذه النعمةِ، وتنقادَ لك وتأتمرَ بأمرِكَ، فعندَ مسلمٍ مِن حديثِ أُمّنَا عائشةَ ـ رضي اللهُ عنها ـ قالت: قال رسولُ اللهِ ﷺ: « إِنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وَثَلَاثِمِائَةِ مَفْصِلٍ، فَمَنْ كَبَّرَ اللهَ، وَحَمِدَ اللهَ، وَهَلَّلَ اللهَ، وَسَبَّحَ اللهَ، وَاسْتَغْفَرَ اللهَ، وَعَزَلَ حَجَرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ شَوْكَةً أَوْ عَظْمًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، وَأَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ، عَدَدَ تِلْكَ السِّتِّينَ وَالثَّلَاثِمِائَةِ السُّلَامَى، فَإِنَّهُ يَمْشِي يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زَحْزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ ». هذه واحدةٌ مِن النعمِ، فمَا بالُكَ بعملِ سائرِ الأجزاءِ، والنعمِ والعطاءِ، ومنحةِ الصبرِ على البلاءِ، فعطاءُهُ عطاءٌ، ومنعُهُ عطاءٌ، وكلٌّ يستلزمُ الحمدَ والثناءَ.

العنصرُ الثالثُ: مِن فضائلِ الحمدِ والثناءِ جلبُ المزيدِ مِن العطاءِ.

للحمدِ والمداومةِ عليهِ العديدُ مِن الفضائلِ، مِن أجلِّهَا، أنّهُ يورثُ رضى اللهِ تعالى عن العبدِ، ويجنبُهُ الحرمانَ مِن النعمةِ، ومِن واجبِنَا أنْ نقدمَ الحمدَ والثناءَ لمَن أحسنَ إلينَا، ومتى اعترفَ العبدُ بالفضلِ لربِّ العالمين استوجبَ الرضَا، والرضَا هو أنْ يأمنَ العبدُ العقابَ، ويضاعفَ لهُ الثواب، وتُفتحُ له كلُّ الأبوابِ، فعندَ مسلمٍ مِن حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضى اللهُ عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا ».

وعلى الحامدِ أنْ يكونَ حمدُهُ بلفظٍ يغلبُ عليهِ أنَّه جامعٌ للمحامدِ، ففي الصحيحينِ مِن حديثِ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ الزُّرَقِيِّ، قَالَ: « كُنَّا يَوْمًا نُصَلِّي وَرَاءَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ

الرَّكْعَةِ قَالَ: سَــــمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، قَالَ رَجُلٌ وَرَاءَهُ: رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، فَلَمَّا انْصَــــرَفَ، قَالَ: « مَنِ المُتَكَلِّمُ » قَالَ: أَنَا، قَالَ: « رَأَيْتُ بِضْــــعَةً وَثَلاَثِينَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلُ ». وما كان ذلك إلّا لمكانةِ الحمدِ والثناءِ عندَ اللهِ تعالى، فعددٌ ليس بالقليلِ مِن الملائكةِ يتبادرُون كتابةَ ثوابِ الحمدِ، وما الحمدُ إلّا اعترافٌ بالفضــــلِ لصاحبِه، فيا لَهُ مِن إلهٍ كريمٍ يُعطِي الجزاءَ والأجرَ العظيمَ على الفعلِ القليلِ، بل العجبُ هو حركاتُ أحرفٍ يجريهَا المرءُ على لسانِه تتحركُ لهَا ملائكةُ الرحمنِ، وتنزلُ مِن السماءِ لينالَ كلُّ ملكٍ شرفَ مبادرةِ كتابةِ هذا الثوابِ، وليس هذا فحسب، بل تعدَّى ثوابُ الحمدِ أكثرَ مِن هذا، فقد ذكرَ رسولُ اللهِ ﷺ أنَّ مَن حمدَ اللهَ تعالى وشكرَهُ حينَ يصبحُ وحينَ يمسِي فقد أدَّى شكرَ يومِه وليلتِه، ومَن شكرَ اللهَ على نعمِه وعدَهُ المزيدَ مِن فضلِه، فقالَ ﷺ: « مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ اللَّهُمَّ مَا أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْكَ وَحْدَكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ، فَلَكَ الْحَمْدُ، وَلَكَ الشُّكْرُ، فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ يَوْمِهِ، وَمَنْ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حِينَ يُمْسِي فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ لَيْلَتِهِ ». [سنن أبو داود].

فالحمدُ مِن العلاماتِ البارزةِ في شــــريعةِ الإســــلامِ، ومِن الكلماتِ التي يجزلُ عليها العطاءُ، ويضــاعفُ لها الجزاءُ، فقد افتتحَ بهَا ربُّنَا كتابَه بالحمدِ، وأثنَى بها على نفسِه، وأولُ كلمةٍ نطقَ بها أبو البشــريةِ آدمُ عليه الســلامُ، فأكثرُوا عبادَ اللهِ مِن الحمدِ والثناءِ، واعلمُوا أنّ اللهَ يذكرُ مَن ذكرَهُ، ويحفظُ النعمةَ ويُعطِي الكثيرَ لِمَن شكرَهُ، فاشغلُوا أوقاتَكُم وألسنتَكُم بحمدِ ربِّكُم لتنالُوا ما عندَ اللهِ تعالى، وما عندَ اللهِ خيرٌ وأبقَى.

اللهُمَّ أعنَّا على ذكرِكَ وشــــكرِكَ وحســـنِ عبادتِكَ، اللهُمَّ اجعلنَا مِن عبادِكَ الحامدين الشاكرين، لنعمِكَ مستحقين، ولجنتِكَ داخلين، وعن نارِكَ مزحزحين.. اللهم آمين!

بقلم/ مسعود عرابي ... مدرس الفقه المقارن بجامعة الأزهر.